قصة مصرية

أزمـــــــــــــة

بقلم لطفى عثمان

أحس إبراهيم بضيق شديد عند ما استيقظ من النوم فى صباح أحد أيام الصيف ، ونظر حوله فى الغرفة فألفى كل شىء فى مكانه لم يتغير « يالله كيف قضيت ليلة أمس ؟ ! » خاطب نفسه وهو ينزع رباط عنقه، ثم نظر إلى قدميه قائلا: « لقد نمت بالحذاء أيضاً ؟! » وضحك ضحكة عصبية ، وبعد أن أتم خلع ملابسه وحذائه بدرت منه التفاتة إلى النافذة فرأى أشعة الشمس قد تخللتها وسقطت على الحائط المقابل لها ، فعلم أن النهار قد طلع وإن كان لم يعرف الوقت بالضبط ، إذ لم يكن يملك ساعة ؛ « هذا غير مهم بالنسبة لى ، فليس هناك ما يضطرنى لشراء ساعة » : ثم فرك عينيه وقفز من فراشه فأحس دواراً شديداً وصداعاً مؤلماً، فتمطى فى فتور وكسل ، ونصب قامته المديدة وأشعل سيجارة ، ثم خرج إلى سطح المنزل يستنشق هواء الصباح ، وأخذ ينظر إلى الفضاء الواسع بعينيه السوداوين الجميلتين .

سكن إبراهيم هذه الغرفة منذ بضعة شهور ، وهى غرفة صغيرة واطئة السقف ، ليس بها سوى نافذة واحدة صغيرة مستطيلة لا يزيد عرضها عن متر ، مرتفعة قليلا عن الأرض بقضبان من الحديد بعضها غير مستقيم ، وطليت حوائط الغرفة بطلاء أحمر باهت ، جعل منظرها كريهاً يبعث على التقزز والاشمئزاز ، ولا توجد فى هذه الحجرة أمتعة ذات قيمة ؛ ففى الركن الأيمن بجوار الباب الفراش، وهو بلا غطاء ولا ستائر ، وأمامه « كنبة » ممزقة قذرة اشتراها حديثاً وأحد أرجلها مكسور ، وبجوار الفراش خوان عادى غير مدهون « بوية » يستعمله للكتابة ويأكل عليه ؛ وفوقه مصباح صغير يستضىء به ؛ وتلقاء السرير من الناحية الأخرى دولاب قديم قبيح الشكل يضع فيه ملابسه، وعدا هذا وذاك يوجد كرسيان مصنوعان من الخيزران: أحدهما لا يصلح بالمرة ، والثانى قديم لا لون له ... هذه كل محتويات الغرفة وهى تدل على التعس والفاقة .

انزوى إبراهيم فى هذه الغرفة — أو بالأحرى هذا الكهف — منذ شهرين ، وانقبض عن المجتمعات ، وتجنب مقابلة أصدقائه ، وأحس بغضا للناس واشمئزازاً من كل شىء يحيط به ، وحتى صاحبة المنزل لم يرها منذ يومين فقد هددها بأنه سيبحث عن منزل آخر ، ولم يكن

فى حالة تسمح له بتنفيذ تهديده إذ انقطع عن عمله، ولم يكن معه إلا بضع قروش تبلغ الثلاثين أو الأربعين قرشاً .

«ما فائدة كل هذا ، ولماذا أعيش ؟» ، ونفخ دخان السيجارة فى الهواء وقال: « إن الحياة عملة فاترة ، ذلك لأن حياتى كلها لم تكن سعيدة هادئة ، بل حياة شقاء وشر وانحطاط ، ولم أعش على النحو الذى يروقنى ، وهذا لأنى لم أعرف كيف أعيش، ولا لماذا ، أو لمن أعيش؟ آه ! إن الساعة مضنية ، وإذا سئم المرء حياته فلماذا يحتملها ويتشبث بها ؟ إن من الحماقة أن يسأل الانسان لماذا يعيش أو لماذا يموت ؟ إذ ما هى الحياة وما هو الموت ؟ هل فى مقدور أحد أن يعللهما ، أو يدرك كنههما ؟ ! من العبث أن يتعب المرء نفسه فى معرفة سر الحياة والموت ، على أنه مهما يكن من شىء فالحياة لا تستحق كل هذا الجدل ، وهى لا تساوى جناح ذبابة ، وما قيمة أن يعظم الشخص ويضخم فى عين نفسه ويجل شأنه ، ثم يصبح لا شىء ! . . . ذرات فى التراب . . جيفة نتنة ! . . . إذن فكل شىء باطل وعبث، المال ، والمجد ، والشهرة ، والبطولة ، كل هذا كلام فارغ ، ما دامت نهايته الموت ، وخمود الحركة ، وفناء الجسم؛ لعمرى كيف غالى الناس فى تقدير الحياة وفرحوا بها وبما فيها من مباهج ومسرات ومتع ، ثم إذا دهمهم الموت تأسوا وأسفوا لخروجهم من الحياة صفر الأيدى، وراحوا يمنون النفس بما ينتظرهم من نعيم خالد، وسعادة أبدية فيما بعد الموت، فى الحياة الثانية ! ها ها ، الحياة الثانية ! . . أليس من الخرف أن يفكر المرء فى الحياة الثانية ؟ ! لا لا . . يجب أن ينتهى كل شىء ، لماذا ؟ لست أدرى ، ولكن الذى أدريه هو هذا ، وهذه المرأة — صاحبة المنزل — يجب أن أتخلص منها ، فقد أصبحت أمقتها ، أواه كيف يأتينى الصبر على احتمال سخافتها ومضايقتها ، إنها تهددنى وتصر على امتلاكى إلى النهاية، ولكنى ملتها، أما ابنتها فانى أرثى لها . لعمرى كيف يمنح الله مثل هذه الأم تلك الفتاة ؟ ! . . نعم بالتأكيد سأترك لها المنزل » ، ثم دار بجسمه فوجد نفسه أمام صاحبة المنزل وجهاً لوجه ، فأزاحها بيده عن طريقه ، ودخل غرفته واستلقى على السرير ، وحدق ببصره فى سقف الغرفة ، ودخلت المرأة وراءه وقد قطبت ما بين عينيها وبدا الغضب على وجهها قائلة: «هل تريد مفارقتى؟» فأجابها إبراهيم بفتور : «ولم لا ؟» ثم استوى جالساً وقال : « اصغى إلى ، إنى لا أحب أن أعيد على مسمعك ما قد قلت ، يجب أن أترك المنزل ، لم أعد أحتمل مضايقتك، وإنى أقول لك بصراحة إنى مللتك ، سأخرج الآن لأبحث عن غرفة » .

جلست المرأة على السرير عند قدميه ووضعت يديها فى خاصرتها فوق ردفيها ونظرت إلى الفتى شزراً ، وزمت شفتيها وقالت — وقد جف ريقها من شدة الغضب — : « أنت تعلم يا إبراهيم مبلغ حبى لك ، وأنى لا أقوى على مفارقتك، لماذا تهددنى ؟ كيف ضايقتك ؟ ! » فلازم الفتى

الصمت واستمر يحدق فى السقف وأحس ميلا إلى تقطيب وجهه ، فغاظ صمته المرأة وصاحت «حسنا أتحسبنى قطة تلهو بها ! إننى لن أتركك تفلت من يدى هذه — وهزت قبضة يدها فى وجهه — أيدور بخلدك أن خروجك من المنزل سهل ؟ » فهز إبراهيم كتفيه بهيئة مخصوصة وارتسم الغضب على وجهه ، ثم قام إلى المرآة الباهتة ووقف يصلح شعره ، وواصلت المرأة الكلام ، ولمح الشاب شعرة بيضاء فى رأسه فقال : « يالله ! كيف نبتت هذه الشعرة الممقوتة ؛ هل كبرت ؟ » ، ثم نزعها بقسوة وألقاها على الأرض بحركة عصبية ، وذهب إلى النافذة ففتحها وأطل منها فشاهد المروج الخضراء المحيطة بالمنزل ، ورأى البنات الفلاحات يمررن وهن يغنين أغانى جميلة راقته وطرب لها ، ولكنه صاح متضايقا : « وهكذا تنتهى الحياة » ، ثم سمع المرأة تقول : « نعم إنك تعبث بى وتخدعنى ، ولم تحبنى لحظة واحدة » فولاها ظهره وعاد إلى النافذة ، وهو يقول : « ما أسخفها وأغباها ! » ، ثم لمح فتاة قروية تسير وحدها ، وكانت جميلة ، ونهداها يهتزان فوق صدرها أثناء سيرها « أى لذة يجدها المرء فى احتضان هذه الفتاة ! » تمتم إبراهيم وقد دهش من نفسه ، وعادت به الذكرى إلى الريف حيث كان يقيم هناك منذ سبع سنوات خلت ، أحب فيها فتاة ريفية جميلة هى مثال الأنوثة الكاملة ، كانت تذهب لمقابلته فى الغيط ، وهناك بين أعواد القصب يضطجعان على الأرض ويحتضنها فينتابه إحساس غريب حينما يلاصق صدره ثدييها البارزين فيحس الدماء تجرى حارة فى عروقه .

وأنبأته يوما أنها حملت ، وأن الوليد لا شك سيأتى منه جميلا أبيض ، فضحك الفتى من قولها وأشاح بوجهه ، وحدث مرة أن زوجها كاد يفاجئها وهى فى أحضان الفتى إبراهيم فى بناء فى نهاية الغيط من الناحية الشرقية أقيم فيه وابور للمياه لرى الغيط حين تقل مياه النهر ، وأحسا وهما فى نشوة الحب حركة ، ولم يعرف على وجه التحقيق — هل كانت حاسة السمع فيهما قوية للظروف التى كانا فيها ، أم أن الصوت كان محسوسا ؟ — وكان زوجها هو القادم ، فقام الشاب وعدا إلى آخر البناء وقفز من الحائط إلى الخلاء ، ودخل الزوج فى تلك اللحظة يحمل بندقيته — فتصنعت الفتاة النوم ، ولما هزها بطرف البندقية فتحت عينيها ببطء وبدأ الرعب فيهما « من هذا ؟ » ، ثم ابتسمت حين رأته زوجها « أهو أنت ؟ لقد أفزعتنى » وضحكت ضحكة سمعها إبراهيم وهو واقف يراقب ، وهكذا لم تقع المأساة ، وظن زوجها أنها أتت لتستريح فى هذا المكان الهادى ، ثم اضطجع بجانبها وجذبته إلى صدرها ، وسمع إبراهيم صوت قبلة فابتسم وهز رأسه ومشى ، وشرع يغنى بصوت خافت ، وقد بدت عضلاته القوية فى وهج الشمس .

عادت إلى إبراهيم هذه الذكرى عند ما مرت الفتاة الفلاحة أمام منزله ذاهبة إلى الغيط ، ثم طافت برأسه ذكرى علاقته بابنة صاحبة المنزل ، فقد أحبته منذ سكن هذه الغرفة ، ولكنها لم تبح له بهذا الحب وبذلت جهدها فى إخفائه عنه ، ولم يكن إبراهيم يجهل ذلك ، وإنما لم

يشأ أن توجد بينهما علاقة حب ، لا لسبب ، بل لأنه لم يرد أن يشغل نفسه بحب فتاة، ولم يكن يميل إلى الزواج ، وكانت الفتاة تجيء إليه فى غرفته كل يوم ثم تجلس على مقربة من السرير، وتظل تحدثه وهى تحدق فى وجهه بعينيها النجلاوين ؛ ومن الغريب أن إبراهيم استطاع أن يكبح جماح نفسه ، على حين أنه كان يود لو يضم إلى صدره هذا الجسم الممتلىء صحة وشباباً.. « لا لا . يجب أن أترفع عن هذا » ، كان يردع نفسه كلما خطرت برأسه فكرة تقبيلها ، والحقيقة أنه بذل مجهوداً كبيراً ـ دهش له هو نفسه ـ فى ضبط عواطفه؛ ولكن الفتاة ضايقها برود وجمود قلبه ، وأحست الخجل من نفسها ، وكانت ثمة فكرة تعذبها «هل هو يحبنى ؟» وآلمتها هذه ، حتى إنها بكت فى غرفتها ، ولم تعد تدرى أتغضب أم تفرح ؟ وأخيراً ضعفت أمام قوته ، ولم تعد تحتمل الكتمان ، فاعترفت له بحبها وألقت بجسمها بين أحضانه ، ولاصق صدره صدرها المكتئر ، وأخذت تجهش بالبكاء ، وقد أخفت وجهها بين كفيها ، فلم يعد إبراهيم قادراً على ضبط عواطفه وأحس حرارة جسمها فاحتضنها ورفع رأسها وحدق فى عينيها الدعجاوين وهمس فى أذنها « ما أحلاك ! » ، ثم قبلها قبلة تنبىء عن أجمح عاطفة وأحرها.

وفى الحق أن إبراهيم كان يشتهى الفتاة منذ رآها ، وكان يخدع نفسه حين تظاهر بعدم المبالاة ، وأخذ يلتمس المعاذير لنفسه مردداً « وهل كنت أستطيع أن أرفض حبها ؟ ماذا كان يجب أن أفعل ؟ أأردعها أم أشتمها ؟ أيليق هذا ؟ إنها فتاة بديعة فاتنة . . وماذا يكون لو قبلتها حتى ولو أحببتها ؟ » .

إن الفتاة ظلت تجيء إليه فى غرفته كلما سنحت لها الفرصة ، وكانت تعجب به وترى فى شخصيته شيئاً جديداً بارزاً لم تكن تعهده من قبل ، وهى فتاة هادئة الأخلاق ، وقد نضجت نضوجاً تاماً ؛ وكان يعيبك أن ترى فى وجهها الأسمر الهادىء ، وعينيها الصافيتين البراقتين مايكنه قلبها من الأحساسات المختلفة ؛ وفوق هذا فهى فتاة متصفة بصفات حسنة ، وهى كجل الفتيات ـ أو جلهن ـ اللائى يعشن فى جو من الخيال ... وقد أعارها ابراهيم بعض الكتب الحديثة فشغفت بقراءتها ؛ وكانت تشاركه فى بعض آرائه وأفكاره وتعارضه فى بعضها فيتناقشان ويحتدم الجدل بينهما فتجيء أمها وتجلس قبالة ابنتها وتقول : « إنكما دائما فى شجار ، فيم الجدل والمناقشة؟» ، فيضحك الفتى ويقول: إنها تقول إن ثوبها حديث وأنا أصر على أنه قديم.

أما أمها فهى ضخمة الجسم تجاوزت سن الشباب ، ومع ذلك فهى لا تزال تعد نفسها فتية تتدفق صحة وشباباً.. وإن الناظر اليها لأول وهلة ليلاحظ أنها غير جميلة، ولكن إذا أنعم المرء النظر إليها يجد فى وجهها بعض ميزات تجعلها جميلة، أو لعل هذه الميزات أثر من آثار جمالها الغابر. وكان يضايقها أحياناً بعض شعرات بيضاء فى رأسها فيغرى الحزن والألم قلبها لشبابها الضائع ، وتروح فى لهجة الأسيف تحدثك عن الذين افتتنوا بها فى أيام صباها ، وكيف أثرت منهم .

ويجب الاعتراف بأنها امرأة ذكية الفؤاد ، وهي من أولئك السيدات اللائي يحرصن على الظهور في المجتمعات بمظهر المرأة المحتفظة بكرامتها وعزتها .. وعلى العموم فهي امرأة عاقلة تحب أولادها وتحرص على سعادتهم وتحب زوجها ـ وهو قانع منها بهذا الحب ـ ويخضع لها خضوعا غريبا، ولا يجرؤ على مجادلتها في أمر، فهي الكل في الكل بالنسبة للجميع.

كان إبراهيم في حيرة من أمر هذه المرأة «هي تعلم بلا شك أن بيني وبين ابنتها علاقة: فهل هي راضية عن هذه العلاقة ؟ ! » ، لم يكن عنده أقل شك في ذلك، وإلا فما كان أحراها بأن تمنع ابنتها الذهاب إليه في غرفته: « ولكن ما النتيجة ؟! هل تبغي أن أتزوج الفتاة ؟! » يكاد إبراهيم يجزم بهذا التعليل ولكنه يذكر حديثا عن الزواج، فقد قالت له يوما « لو أنك موظف في الحكومة لزوجتك سعاد » ؛ فينفي عن خاطره هذه الفكرة ..

وإنا لنلاحظ أن صاحبة المنزل كانت تهتم بإبراهيم اهتماما فائقا ، وتعنى بشئونه الخاصة ، وقد مرض مرة فقضت أسبوعا كاملا ساهرة على خدمته والعناية به حتى شفي تماما، ولشد ما كان يضايقه منها هذا الاهتمام ؛ إنه ليس طفلا وليس في حاجة إلى عطف أحد ، أو لم يقاطع أمه فرارا من حنانها وشفقتها به ؟ فلماذا إذن يحتمل الآن صاحبة المنزل ؟ ولماذا تتعب نفسها لأجله ؟ ! . . .

فخطر برأسه بغتة خاطر غريب وسأل نفسه « هل هي تحبني ؟ » ، ولكنه لم يلبث أن طرد هذا الخاطر من رأسه وقال « لو كانت تحبني فلماذا تظهر بهيئة المرأة الشريفة ؟ »

حار إبراهيم في فهم كنه هذه المرأة وأغضبه أنه لم يستطع تحليل نفسها وتساءل ـ وقد ضايقه ذلك ـ « ما كنه هذه المرأة ومن أي نوع هي ؟ ! .. »

وعاد إلى المنزل ليلة فرآها واقفة على رأس السلم فابتسمت تحيية فرد تحيتها وهم بالذهاب إلى غرفته فنادته « تعال أكل سهرتك معنا » فأجابها « حسنا ! ماذا أعددت ؟ » ودخل وراءها مبتسما وأخذته إلى « الفراندة » فألفاها قد نصبت خوانا كبيرا ووجد أطباق الحلوى والفاكهة واللحم وزجاجات الخمر وجلس حولها أولادها الثلاثة فبدرت منه آهة دهشة، وقال « ماهذا ؟ أوليمة عرس ؟ ! » ثم خاطب نفسه متحيرا « ترى ما معنى هذا ، ولماذا لم تدع الأولاد ينامون ؟ » وأخذ مجلسه بالقرب من المرأة فابتسمت وقالت « إنك ضيف عزيز ».

وشرب الاثنان زجاجتين من النبيذ ، وأكل الأولاد بعض الحلوى والفاكهة، ثم لم يلبث أن نام أصغرهم وقفا أثره أخوه الأكبر ، وبقيت سعاد فأخذوا يسمرون حتى انتصف الليل ، وكان الليل رائع الجمال والهواء مبترداً قليلا ، والقمر مرسلا نوره الفضي الجميل ، فبدا منظر الأشجار يعلوها ضوء القمر والحديقة والفضاء الواسع فاتنا بديعا ، وكان السكون مخيما إلا من أصوات الليل الغريبة المبهمة وصوت كروان يغرد من حين لحين ؛ وأتت فراشة كبيرة من

الحديقة وظلت تحوم حول النور المضاء فى «الفراندة» ويصطدم رأسها بالحائط فلا تلبث أن تعود إلى النور، فحدق إبراهيم بعينيه إلى الفراشة وقال بحزن : « وهكذا نحن كالفراشة نحوم حول الحياة فاذا رغبنا فى الابتعاد عنها تجذبنا إليها قوة خفية .. » ، واقترحت سعاد « إطفاء النور » فقال إبراهيم « لو أطفأنا النور لاختفت الفراشة وغاصت فى أعماق الظلام ولن تعود ثانيا ؛ وكذلك الحياة إذا انطفأت اختفينا فى أعماق العدم ثم لانعود ثانيا ». فقالت الفتاة متحدية ابراهيم : «ولكن لماذا نطفئ حياتنا بأيدينا؟ أليس هذا ظلما شنيعا؟! » فاكتأب إبراهيم وقال: «لماذا يكون ظلماً ؟ إذا مل المرء النور فماذا يفعل من فضلك؟! » فأجابت، ليس ثم شيء يدعو إلى الملل» فنظر إبراهيم إلى عينيها ولاحظ لأول مرة أن فى عينيها سحراً فاتنا وأحس قوة تجذبه إليها وأيقن أن هذه الفتاة ليست شقية وأن القدر لايسعه إلا أن يمنحها السعادة ؛ ثم قام وأطفأ النور واختفى القمر وراء سحابة كثيفة؛ فبدا الليل أشد ما يكون جهامة ووحشة، وبرزت النجوم وكان بعضها خابيا وبعضها يتوهج نوراً وتألقا ؛ وأخذت المرأة تمزح مع إبراهيم بكيفية أثارت شكوكه نحوها مرة أخرى ، وكانت سكرى بحسب الظاهر؛ وقال إبراهيم لنفسه« يجب أن أحتاط لنفسى ، لن أترك لها أقل فرصة ، وسأحتفظ بقواى العقلية وبعزيمتى . . . » ، وكانت المرأة تتكلم كثيراً فى أشياء تافهة وتأتى بحركات سخيفة وتحرك يديها بهيئة مخصوصة فأحس إبراهيم الغيظ واعترته السآمة والضجر ، ولم يدر لذلك سبباً ، وعزم على القيام فسألته المرأة « أتريد أن تنام هنا؟ » فأجابها وهو يتظاهر بالسكر « لا! يجب أن أنام فى غرفتى » وانجابت السحابة فى تلك اللحظة فسطع القمر مرة أخرى أشد ما يكون وضاءة وجمالا ؛ فقام إبراهيم يتمايل فى مشيته ، والحقيقة أنه شرب كثيراً ، وشعر بتراخ فى مفاصله ، وخور فى عضلاته ، ولكنه بذل مجهوداً كبيراً لكى يحفظ توازنه .

ودخل ابراهيم غرفته وألقى بجسمه على السرير ، وتبعته المرأة بعد قليل ، وجلست على « الكنبة » ، فقام ابراهيم وجلس بجانبها ، وأسندت رأسها إلى الوراء ، وأغمضت عينيها فبدت جميلة فاتنة ، واحمرت وجنتاها من تأثير الخمر فلم يتمالك الشاب نفسه ومال نحوها قليلا وقبل شفتيها؛ فأتت بحركة كأنها لا تدرك ما يحدث ، وحدقت فى عينيه البراقتين؛ ثم احتضنته وقبلته وتمتمت « ما أبهاك! » فضمها إلى صدره وأطال التصاقه بها وأظهرت أنها تريد التخلص من بين ذراعيه؛ وأخيراً سقطت على «الكنبة»، وزاد الفتى الضغط على جسمها فتراخت أعضاؤها وهمست تقول : « اتركنى بربك ! ماذا ؟ ماذا تريد ؟ » وأحست حرارة جسمه فأسلمت نفسها لرغبته . . .

كان السكون حولها عميقا والجو معتدلا ، وقد اضطجعا على « الكنبة » ، وهى نصف عارية ، ومضت فترة طويلة ، ثم بزغ الفجر وارتفعت أغاريد العصافير ، وعلا صوت الديكة ، فقامت المرأة وأصلحت ثيابها وشعرها وقبلته ، ثم غادرت الغرفة مسرعة . .

***

أدرك إبراهيم أن المرأة كانت تشتهيه وتريده لنفسها ، وهي تعلم أنه شخص ملول ضجر ، فخافت أن يتضايق ويفلت من يدها ، ولذا تركته يلهو بالفتاة ، ولم تترفع عن اللعب بعواطف ابنتها في سبيل تحقيق غرضها ، وهي امرأة ماكرة لم تشأ أن ينالها بمحض رغبتها ، وفضلت أن يعتقد أنه نالها اغتصاباً وهي سكرى لا تعي شيئاً مما يحدث ، وصيرته كطفل لا يفهم كيف يحل اللغز ، وقال لنفسه « ما أشد دهاء هذه المرأة ! إنها شخصية عجيبة مضحكة ، لم أر أمتع منها » ولكنه مع ذلك لم يسعه إلا الغضب والاشمئزاز .

وفكر في سعاد « ماذا أصنع بها ؟ هل أتزوجها ؟! » إنه يرى أن الزواج أمر مبتذل شنيع ، وكيف يستطيع من كان مثله معكر المزاج أن يحتمل الحياة الزوجية وكل ما فيها من أنواع المضايقات ، « كلا ! إن هذا مستحيل ، أأتزوج وأكون رب أسرة ؟ هذا جنون ، ولماذا أقضي على نفسي ؟ ! » قال ذلك متشنجاً وساوره حزن ممض ، ومن الغريب أنه في هذه اللحظة أحس مقتاً شديداً نحو صاحبة المنزل ، وود لو يصفعها ويبصق في وجهها إظهاراً لاحتقاره لها ، واستحسن هذه الفكرة ، حتى إنه صمم على تنفيذها بيد أنه لم يرتكب هذه الحماقة . .

لم يكن التغيير الذي طرأ على أطوار ابراهيم وأخلاقه ، نتيجة مصيبة أو نكبة نزلت به ، ولكنه — لأن آراءه تغيرت في الحياة ، وفي الناس ، وفي المرأة ، وفي كل شيء في الأعوام الثلاثة الأخيرة — كره الحياة ، وأصبح يراها تافهة مملة لا تستحق مجرد التفكير فيها ، ونشأت في رأسه في المدة الأخيرة فكرة . . وصمم على تنفيذها وإن كان لا يجرؤ على تصورها ويراها كأنها مستحيلة التنفيذ ، ومن الغريب في أمره أنه — برغم بغضه للحياة وآلامه النفسية — كان يحاول أن يبعد هذه الفكرة عن رأسه ، وأن يخدع نفسه بأنه سعيد مغتبط بحياته .

ولم تكن حياته تسير على وتيرة واحدة ، فأحياناً يكون حزيناً منقبض الصدر ، ويدور في وهمه أن الناس أعداؤه وأنهم يتآمرون عليه ، ويخالجه خوف مبهم ويزيده ثقل إحساسه بمستقبله والطريقة التي يعيش بها اكتئاباً وهماً ، ويشعر بملل الحياة وخلوها من بواعث السلوى والسرور ، فيأخذه القلق أيما مأخذ ويثور غضبه لأقل شيء ، ويصبح لا يطيق النظر أو التحدث إلى أحد ، ويجنح إلى العزلة والانفراد بنفسه في غرفته ، وأحياناً يكون فرحاً جذلا متفائلا بالمستقبل مغتبطاً بحياته وبكل ما يحيط به ، وتخطر في رأسه عدة مشروعات جليلة سوف تدر عليه ربحاً كبيراً ، وأحياناً يصبح شخصاً هادئاً يتقبل الحياة كما هي غير مكترث لشيء ، لا يفرح لخير ، ولا يألم لشر ، ولا يغضب ، ولا يثور ، وينظر إلى الحياة نظرة المستهتر الهازئ ، المقتنع بأن كل شيء في الدنيا باطل ، مآله الفناء والعدم ، وما دام المرء له عمر محدود فلم لا يستمتع بلذات الحياة ومناعمها بقدر ما يستطيع ؟ ومن الغريب أنه لم يكن يتصور لحظة — بالرغم

من كل هذه الحالات النفسية المختلفة والاحساسات المتناقضة التي تنتابه وشعوره بخروج مركزه — أنه مريض ، أو مصاب بعلة ، بل كان يعزو هذه الحالات إلى شدة بؤسه وفاقته .

لهذا آثر ابراهيم الوحدة وانزوى في هذه الغرفة الحقيرة في ذلك المنزل ذي الطابقين والحديقة الموحشة الجهمة الممتدة إلى آخر المنزل، وليس فيها سوى بضع شجيرات من الورد وزهر القرنفل وكرمة عنب لا تثمر إلا الحشرم تأكله العصافير . . ولم يعد يقابل أحداً من أصدقائه حتى صديقه القديم فؤاداً الذي أخلص له الحب وأصدقه الوفاء، وكان يفهمه ويألم لحالته النفسية، ولما رآه يتحاشاه ويتجنب مقابلته تركه ولم يشأ مضايقته .

وبلغ الملل والضجر بابراهيم مبلغاً كبيراً ، وبدت له الحياة أحقر وأظلم ، وعجب كيف أمكنه احتمالها وساءت نظرته للناس ، وأساء الظن بكل شيء ، وطغت عليه أفكار سوداء شوشت فكره وزادت نفسه اسوداداً ، وامحت من قلبه العاطفة الانسانية وتجرد من كل حنان وحب وضعف إيمانه بالله ؛ وكان يعيش بكامل حريته الفكرية ، ويعتقد أنه شخص غير عادي، شخص كامل لا يتقيد بما يتقيد به الناس، ويسخر من المعتقدات العتيقة والمثل العليا التي يراها الناس في الأديان ، وخاطب نفسه :

« ما أحقر كل هذا ، هل في الدنيا خير وشر ، وفضيلة ورذيلة ؟! . . إن مقياس الخير والشر والفضيلة والرذيلة كمقياس القبح والجمال بالضبط، فما يعتبره بعض الناس قبيحاً يراه غيرهم المثل الأعلى للجمال ؛ إن هذا واضح ، ومن البداهة بحيث لا يحتاج إلى تفسير ، فأنا مقتنع بوجود الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، ولكن لماذا أتقيد بالناس وبآرائهم وأسير على منوالهم ؟ وهل من الضروري أن ما يعتبره الناس خيراً أعتبره أنا خيراً كذلك ؟! . إن لي رأياً خاصاً في الخير والشر ، وأفعل ما أحبه بغض النظر عن كونه خيراً أو شراً ، أليس هذا مضحكاً ، لماذا أتكلم هكذا ؟!» ، وخطر له بغتة خاطر أزعجه «هل أنا مجنون ؟!» لم يهتد ابراهيم إلى جواب يريح نفسه المعذبة وآلمه هذا فقال: «لماذا أفكر في هذه الأشياء التافهة؟. يجب أن أضع حداً لكل هذا » وعذبته فكرة الجنون عذاباً مراً وداخله فزع وهم ، ثم صاح فجأة :

« يجب ألا أعتمد إلا على نفسي ، إن الحياة جهاد وكفاح ، والويل لمن يفشل فسيسقط في الميدان خائر القوى ، ومن ثم يداس بالأقدام ، وهكذا تنتهي حياته المرة ويغوص في هاوية العدم ؛ وهب أن هناك حياة أخرى ، وهناك قضاء فأية قيمة لهذا ، وما الذي تجنيه الالهة من تعذيب أناس ارتكبوا جرائم وإمتاع غيرهم عاشوا أعفة فضلاء ؟! هب كذلك أن العالم قد فني ودكت الجبال دكاً ، وانطبقت السماء على الأرض ، وأتت الساعة التي لا ريب فيها ، فهل تبقى الالهة بلا عمل ؟ أم تنوي أن تخلق دنيا جديدة في شكل آخر وبطريقة مبتكرة ، فتطلع الشمس مثلا من الغرب وتغرب في الشرق ، وتبسط السماء وترفع

الأرض ؛ ويمشى الانسان على أربع والحيوان على اثنتين ، ويكون له أربع عيون وأنف كأنف سيراتودى برجراك ؟ ! لعمرى لست أرى كل هذا إلا سخفا وهراء ، إما أن الدنيا ستبقى كما هى الآن ، يموت أناس وغيرهم يجيئون ، وإما أنها تفنى وحينئذ يفنى كل شىء . ولا تقوم لها قائمة . . » .

عاد ابراهيم إلى وجومه وتفكيره ، وغرق فى بحار من التأملات ، وجعل يسير فى الغرفة جيئة وذهوبا ويداه مشبكتان وراء ظهره « إذا أمكننى أن أعد نجوم السماء عرفت سر الحياة » خاطب نفسه وفتح فاه الكبير وابتسم ابتسامة مرة لو رأتها سعاد لفزعت وهربت ، ووقع نظره مرة أو مرتين على المرأة — صاحبة المنزل — فلاحظ أنها تتبع حركاته بنظراتها ، فلم يكترث لها ، وعاد يطل من النافذة .

لم يستطع ابراهيم إدراك علة آلامه وهمومه ، ولم يكن لها فى الحقيقة سبب ظاهر ، وأحس مرارة الألم لمجرد تصوره أنه شخص تافه لا خير فى وجوده بالمرة ، وشعر — لأول مرة — بالحنين إلى أمه التى قاطعها منذ عام ، وتاق إلى رؤيتها والارتماء بين أحضانها ، كما كان يفعل وهو صبى ، وملأه هذا الاحساس الرقيق شعوراً بالرضى والارتياح ، وبدا فى عينيه الساكنتين بريق لطيف انعكس وجهه الأبيض وضاءة ، وارتعشت شفته السفلى قليلا ، وارتسمت على فمه ابتسامة هادئة صادقة ، وتخيل أمه فاتحة ذراعيها كأنها تقول : تعال يا بنى ! فليس لك فى هذه الدنيا صدر ترتمى عليه فى ساعة محنتك وآلامك غير صدرى ، فتعال نعش معاً ودع الوفاق يسود بيننا وكن شفيقا بى كما كنت وأنت طفل ساذج .

أشرق وجه ابراهيم لمرور أمه فى خاطره وفكر فى الذهاب إليها ، وكان بطبيعته رقيق القلب ، دقيق الحس ، نبيل العواطف ، وكانت أمه ترى فيه — منذ طفولته — شخصا غريبا ، فلما أن قاطعها وذهب يعيش وحده آلمها ذلك فى بادىء الأمر ، ولكنها لم تشأ أن تضايقه ، وداخلها إحساس غريب بأن ابنها جدير بالاشفاق عليه بالنظر إلى حالته وخصاله التى تعدها — بحكم البيئة التى نشأت فيها — تعاسة لا يجمل بالرجل المهذب أن يتصف بها ، وكان أشد ما يكربها وينغص عيشها ضعف إيمانه بالله ، ولما كان طفلا صغيراً كانت تبذل جهدها فى حمله على الصلاة والصوم وقراءة القرآن ، فكان يتظاهر — خوفا منها — بالصوم بينما هو يأكل فى حجرته ؛ أما الصلاة فكانت من أشق الأمور عليه ، وكان يتكاسلها ، وأحيانا يصلى دون أن يتوضأ ، أو يقرأ شيئاً ، ويهمهم بصوت خافت كأنه يقرأ ، ويرفع صوته « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم لا تسمع والدته شيئاً بعد ذلك ؛ أما القرآن فكان — لسبب ما — يلذ له قراءته ، وأحيانا يستيقظ فى الفجر ويجلس ليقرأ سورة « الكهف » ويفعل ذلك دون غرض ، فتضحو أمه وتنبه بابنها ويداخلها الفرح ، ثم تقوم وتقبله وتدعو الله أن يجعل ابنها من الصالحين —

فيغتبط ابراهيم ، لا لأنها دعت له ، ولكن لأنه فعل شيئا رائعا وأعجبها .

ولما كبر ترك الصلاة والصوم واستكان إلى التصنع والتظاهر بالايمان ، ورأى أن كل هذا محض هراء لا طائل تحته .

ذكر ابراهيم كل هذا فضحك ساخراً من أعماق قلبه واستحسن فكرة الذهاب إلى أمه وعاوده الاكتئاب فقال : « لماذا أنا حزين مكروب ؟ إنى لا أزال فى بداءة العمر وميعة الشباب ، وأمامى الحياة قوية زاخرة ، وضوء الشمس ونجوم الليل الوضاءة،وكل ما فى الحياة من مباهج ومسرات تثير فى النفس اللذة والحب ، وعدا هذا فهنا أم وابنتها تحيانى فضلا عن بضع فتيات حقيرات عرفتهن فى الطريق ، فاذا طرأ على وغير حياتى وجعلها قاتمة سوداء ؟! » .

مرت كل هذه الأفكار بخاطر ابراهيم فى سرعة ، وأخيراً مل التطلع من النافذة وأخذ منه التعب مأخذاً كبيراً وأحس كرباً شديداً فعاد إلى حيث كانت المرأة جالسة فهالها شحوب وجهه وسألته « ما بك ؟ » فلم يجب واستلقى على فراشه وأدار وجهه إلى الحائط فاستقر نظره على ورقة حمراء بها بعض رسوم فأخذ يتأملها ، وساد فى الغرفة سكون ممل ، ولم تجد المرأة موضوعاً تتكلم فيه فعولت على الانصراف وقالت وهى تغادر الغرفة « سأعود بعد قليل » .

ومضت فترة قصيرة ، ثم سمع نقراً على الباب ، وفتح الباب بهدوء ودخلت فريدة الخادم قائلة : « ألا تزال نائماً ؟ فم فان الساعة قد بلغت الحادية عشرة ،ما هذا ؟ أليس لك عمل ؟ لقد أحضرت لك الشاى وقطعة من الجبن ورغيفاً ، هل تأكل ؟! »

فدفع ابراهيم الطعام بيده ولم يحس ميلا للأكل مع أنه لم يأكل منذ البارحة وعاف النظر حتى إلى الطعام .

« ضعيه على المائدة » قال ذلك بصوت هادىء ، وهو يحدق فى عينى الخادمة بطريقة أرعبتها،وقد علم عنها أنها ابنة ضابط كبير أحبت فتى وعدها بالزواج،وقد حملت منه ووضعت طفلا وخشيت الفضيحة فألقته فى مرحاض ، ولكن الجريمة اكتشفت وقبض عليها وزج بها فى السجن ، ولما خرجت أنكرها أهلها وهجرها الفتى فاشتغلت فى هذا المنزل ، وهى فتاة طيبة بلهاء يخالها المرء أنها أصغر من سنها إذ لم تكن قد بلغت التاسعة عشرة ، ولكنها كانت تبدو طفلة صغيرة ، دقيقة الأنف مستطيلة الذقن منفرجة الأسنان قليلا ، فى خدها الأيمن أثر جرح قديم ، نحيفة جداً ، وفى عينيها الصافيتين بريق ينبىء عن سذاجتها ونقاء سريرتها ، وعلى العموم فلا يقال عنها جميلة .

« هذه الفتاة ليست أسعد منى ، وقد خدعها رجل نذل وغدر بها ، ثم تركها ولم يبال بالدموع التى سكبتها حين فقدت طهارتها ، إن هؤلاء الرجال من أحط أنواع الأنذال فى الدنيا ،

وحدج الفتاة بنظره متألماً ، وقد أدركه غم شديد لم يدر سببه،وقال لنفسه « إن هذه الفتاة ليس لها فن للدعارة ، فماذا تنتظر ؟ ! » وسألها فجأة « لماذا تعيشين ؟ إنك لم تنالي من الحياة إلا العار ، ولم يمنحك الله شيئاً ؟ »

فدهشت الفتاة وارتبكت وأجابته وهي ترتجف من فرعها إلى قدمها .

« ولكن الله موجود وعادل » .

« وهل تعتقدين بالله ؟ »

«أعتقد» ، وتجهم وجهها الصغير الأبيض ، وشاع الألم والحزن في نفسها وسمعت ابراهيم يقول « إذن خير لك أن تنتظري ألف عام حتى ينالك عدل الله ! » ، ثم قفز من فراشه ووقف أمام الفتاة بحيث لامس جسمه جسمها فارتعدت وتراجعت قليلا فأمسك بذراعيها وقبل عينيها .

فسألته الفتاة وهي دهشة « ما هذا ! ماذا تصنع ؟ ! » .

« إنك بائسة مثلي » ثم تركها واضطجع ثانيا وغرق في بحار من التفكير .

فقالت الفتاة وهي مرتبكة : « إنك شخص مخيف غريب الأطوار » فنظر إلى عينيها الحزينتين فغادرت الغرفة وهي وجلة دهشة .

وحالما خرجت فريدة قام ابراهيم وطفق يأكل فشرب فنجانا من الشاي وأكل قطعة من الخبز دون أية شهية وكأنه يأكل بطريقة ميكانيكية ، وشعر بتحسن في حالته ، ولما فرغ من هذه الأكلة البسيطة اضطجع على السرير وأخفى وجهه في الوسادة وبقي كذلك صامتا شارد الفكر يحاول أن يجمع أفكاره ويحصرها في شيء واحد ، ثم سمع وقع أقدام فتحقق أن القادم صاحبة المنزل إذ سمع صوتها .

سألته المرأة وهي داخلة الغرفة بصوت خيل إليه أنه كصوت الساقية التي تدور دون أن تخرج ماء : « ألا تزال سابحا في أفكارك ؟ » .

« ماذا تريدين ياسيدتي ؟ » وجلس على السرير وواصل كلامه « إنني قلت لك ألف مرة يجب أن أترك المنزل ، إن ظروفي الخاصة تضطرني إلى ذلك ، وستكونين أسعد حالا بلا شك ، سأرحل حالا ، إن كلينا لم يخسر شيئا ، فيم الالحاح ؟ إني أعلم أنك تحبينني ، ولكني أصرح لك أن حبك يضايقني ، هل تظنين أني أقضي حياتي في منزلك ؟ هذا محال ، هذا محال ، هذا محال ، أفاهمة أنت : هذا محال » نطق ابراهيم الكلمة الأخيرة « هذا محال » بصوت عال ، وبلغ به الهياج مبلغا كبيراً ، واشتد به الغضب شيئا فشيئا ، واستمر يتكلم باذلا جهده في تفريج كربه « إنني ياسيدتي شاب فقير ومريض ، وعدا هذا فأنا أفكر في أمور أخرى أجل من التفكير فيك ، لماذا تنظرين إلي هكذا ؟ لا تعتبريني سيء الخلق ، إنني لا أخشاك ولا أريد أن يهتم بي أحد ،

لقد بلغت السابعة والعشرين سنة ، ولم أنل من الحياة شيئا ، فماذا أرجو بعد ذلك وماذا آمل ؟! دعيني ياسيدتي . . ماذا تبغين مني ؟ إن نفسي ثائرة متمردة تريد حرية أوسع من حرية نفوسكم وتريد أن تحطم قيودها التي كانت ترسف في أغلالها مع نفوسكم » .

سكت إبراهيم وقد جف ريقه من شدة الغضب ، وأخذ صدره يعلو ويهبط وهو يلهث كأنه عدا مسافة بعيدة أميال ، واتسعت عيناه وخيل إلى المرأة أنهما كبرتا عما كانتا عليه ، وخرج الزبد من فمه وكان يرتجف كالمحموم ، فآلمتها حالته وحنت عليه وسألته : « أمريض أنت يا ابراهيم !؟ إنك تهذي » .

وسأل الشاب نفسه « هل نجحت في تمثيل الدور ؟ أواه ما أشد مقتي لهذه المرأة ! » .

وأغمض عينيه ، وبعد هنيهة أحست المرأة أنه نام فقامت وهي ترمقه بعطف وحب وحنان ، واغرورقت عيناها بالدموع وهزت كتفيها « يجب أن أتركه الآن ، لا فائدة من الكلام ، إنه غاضب وربما كان مريضا » ، ثم أدارت ظهرها وخرجت من الغرفة .

* * *

لم يعرف إبراهيم — على وجه التحقيق — مقدار الوقت الذي قضاه نائما ، واستيقظ متوعكا مصدع الرأس ، ثائر ، كل شيء حوله هادئا ساكنا « ماذا حدث لي ؟ » ، ثم قام وأطل من النافذة فرأى الظلام حالكا وأمكنه أن يرى — على الرغم من شدة الظلام — أشباحا سوداء بعيدة فعلم أنها أطراف أشجار الصفصاف القائمة على شاطئ نهر صغير على مقربة من المنزل ، وسمع نقيق ضفدع يعكر صفو الهدوء الشامل ، وشاهد ضوء مصابيح خابية .

لم يدر الوقت بالضبط ، ولكن ما حوله من سكون وظلام ينبئانه أن الليل انتصف أو وشك على الانتهاء « لا يهمني هذا وسأخرج ، نعم بالتأكيد سأخرج ، ولكن أين أذهب ؟ » الحقيقة أنه لم يكن معتمدا على شيء ، ولكنه لبس ملابسه ووقف على رأس السلم وأخذ يستمع فلم يسمع صوتا ولا حركة فأيقن أنهم نائمون ، ثم مشى على أطراف قدميه وفتح الباب بهدوء فلفح وجهه هواء الليل ، وكان كله حرارة وسموما ، وسار على غير هدى ، ومن المحقق أنه لم يكن في حالته الطبيعية ، فلم يساوره الخوف أثناء سيره في مكان موحش يكتنفه الظلام ، ووصل إلى ساقية مهجورة تبعد عن المنزل بثلاثمائة أو أربعمائة خطوة فجلس على حافتها منهوك القوى وأخفى وجهه بيديه .

« هل يجب أن أحيا ؟ هل الانتحار جبن ؟ كلا ، إن حب الحياة غريزة في كل إنسان ، والشجاع من تمكنه التغلب على هذه الغريزة ، ما أفظع هذا ! أأعيش للتساؤل عن مستقبلي ، وما ينبغي لي أن أصنعه ! ؟ آه ! إن المسألة ليست مسألة موت أو حياة ، بل هي مسألة مبدأ ، أو فكرة ، أو غاية أعيش لأجلها وأضحي كل شيء في سبيلها ، ولكن ما هذه الغاية التي أسعى إليها ؟ ! .

لا لا ! إن هذا سخافة مطبقة ، إنى شخص حقير ضئيل وسوف لا يخسر العالم بموتى، وهبنى عشت ونلت الشهرة وبلغ احترام الناس لى مبلغا كبيراً فماذا يجدى على كل هذا ؟! . إننى مائت لا محالة ، إن لم يكن اليوم فغداً ، وسأدفن فى الأرض الباردة ويتعفن جسدى ويبقى كل شىء فى العالم كما هو، ويمر الناس على القبر الذى يضم جسدى البشع وعظامى التى سينخرها الدود».

ثم ذكر فريدة فجأة فسرت فى جسمه رعدة باردة وقال: «أواه... إنها فتاة بائسة محرومة فقدت كل شىء ، ومع ذلك فهى تعيش وتأمل ، ولعلها تنتظر معجزة من السماء تعيد إليها طهارتها ، إن هناك مئات بل آلافا مثلها يملأ الاعلان بالعدالة السماوية جوانحهن ، أما أنا . . ماذا ؟ كلام فارغ . . . » .

أخذ ابراهيم يخاطب نفسه ويرد على هواجسه دون أن يجرؤ على رفع بصره « ظير لى أن أموت » قال ذلك كأنه يجاوب عن سؤال شخص ثان يسأله « ماذا تنوى أن تفعل ؟» ، ثم حانت منه التفاتة إلى الساقية وحدق فى أعماقها فلم ير شيئاً لشدة الظلام .

* * *

صحا ابراهيم فى اليوم التالى متأخراً ، ولما فتح عينيه وجد صاحبة المنزل واقفة تنظر إليه وقد اجتهدت ألا تحدث حركة خوفاً من إقلاقه ، فأغمض عينيه ثانيا وتظاهر بالنوم، وظلت المرأة واقفة تنظر إليه ، ولم يضايقه فى هذه المرة وقوفها ، وكان متعباً من الأفكار التى ساورته فى الليلة السابقة ، وشعر أنه قاسى مجهودا ذهنيا كبيرا ، ولكن أعصابه هدأت تماما وأحس راحة نفسية .

وضرب السكون أطنابه فى الغرفة ولم يسمع سوى طنين نحلة تطير واصطدام رأسها وقتئذاك بزجاج النافذة ، ففتح عينيه وقال : « وماذا بعد ؟ » فضحكت المرأة وقالت : « هل كنت تتصنع النوم ؟ إنك عدت متأخراً أمس ، فأين كنت ؟ !» فأجابها الفتى مبتسما « ذهبت إلى الساقية » فريعت المرأة لدى سماعها كلمة «الساقية» ودار برأسها - فى سرعة البرق - خاطر أزعجها وأمضها ، فخفق قلبها وغاضت الابتسامة من شفتيها وسألته «وماذا صنعت هناك ؟» فلم تفارق الابتسامة شفتيه ، وقال بصوت هادىء متزن « كنت أفكر» فقالت: « وماذا أجدى عليك التفكير ؟ » فصمت وساد السكون مرة أخرى وظل طنين النحلة يدوى فى الغرفة ، فانحنت عليه وقبلت شفتيه فأمسك يدها وجذبها إليه ثم قبلها ، وقد فعل ذلك بلا شعور ولا إدراك وكأنه يؤدى عملا طلب إليه إنجازه ، ثم هوى بذراعيه إلى جانبيه ونظر إلى السقف بتحديق وأصبح كشخص حكم عليه بالموت ، ثم صدر أمر العفو عنه ، وقال كمن يحلم .

« ما أشقى الانسان !!! » .

لطفى عثمان